اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الأولى)

عنوان المحاضرة : تاريخ الشعر العباسي .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

المحاضرة : ١

الحياة السياسية (١٣٢هـ ٦٥٦هـ)

تعدّ هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة التى نشبت ضد بنى أمية، وهى ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح الاجتماعى، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرّفق على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء، وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محوا على نحو ما كان يريد ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب. وقد شهر هؤلاء الثائرون السلاح فى وجوههم مرارا، كانت تتعرض فيها دولتهم للخطر أيما تعرض غير أنهم استطاعوا دائما أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحارا من الدماء، متخذين من القضاء على كل ثائر وأنصاره نكالا لكل من يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية.

وكانت تنضم إلى كل هذه الثورات فئات من الموالى الذين اضطهدهم بنو أمية، وحرموهم المساواة بالعرب فى الحقوق، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب فى الضرائب وغير الضرائب وقد احتملوا فى ذلك ألوانا من البؤس الذى يطاق والذى لا يطاق. فكان طبيعيّا أن تكثر مطالبتهم بالعدل الاجتماعى وأن يطمحوا إلى حكّام جدد يقرّون فيهم مبادئ الإسلام الذى يوجب المساواة بين أفراد الأمة فى جميع الواجبات المالية وغير المالية والذى ينكر الظلم أشد الإنكار، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لمآربها العاجلة. وقد وضعت كثرتهم آمالها فى أبناء على وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالى بحيث أصبحوا شيعتهم، غير أنهم فقدوا فى أسرة على وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الجرئ الذى يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يكتب لها النجاح.

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ولى الخلافة، وكان مدمنا للخمر منادما للفسّاق والمغانى، وكأنما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد، فاستغل ذلك أيما استغلال دعاة أبى سلمة فى خراسان، فقد بدا فى وضوح فساد الحكم كما بدا فساد النظم الاجتماعية التى رزح الموالى تحت أثقالها الباهظة. وتراءى حينئذ فى

الأفق أن سلطان البيت الأموى يؤذن بالسقوط، لا لما انتشر فيه من فساد الترف فحسب، بل أيضا لما نشب من خلاف عنيف بين أفراده، إذ لم يلبثوا أن قتلوا الوليد وأخذوا يتطاحنون على عرش الخلافة تطاحنا مرّا، وتغلّب بأخرة مروان بن محمد، غير أنهم نابذوه وثاروا ضده، وانتهز الخوارج الفرصة، فنازلوه فى الموصل وفى اليمن والحجاز.

بناء بغداد ثم سامرّاء

رأى أبو جعفر المنصور أن يبتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين من قديم حتى يأمن على نفسه مما قد ينشب فيها من ثورات، وحتى يعزل جنده عن أهلها فلا يفسدوهم. وكان مما دفعه إلى ذلك ثورة الراوندية، وهم نفر من شيعته كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم، فلما خرج إليهم ينهاهم عن سوء معتقدهم تدافعوا إليه كالموج، وكادوا يفتكون به لولا دفاع معن بن زائدة الشيبانى عنه وحسن بلائه .

اعتزم المنصور اتخاذ تلك القرية المسماة ببغداد عاصمة الدولة، وقد اختلف الباحثون فى أصل اسمها، فقال فريق إنه اسم فارسى وقال آخرون إنه اسم آرامى ، وسماها المنصور «دار السلام» أخذا من قوله جلّ وعزّ، (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) وبهذا الاسم كانت تضرب النقود العباسية. وقد كانت منطقتها موئلا لحضارات مختلفة إذ كانت تلتقى بها قبل الإسلام الحضارات: الكلدانية والفارسية والآرامية، وكانت تنبث حواليها أديرة كثيرة.

وعنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرته، بل قلعته الحصينة، فأحضر لها المهندسين والفعلة والصناع من أطراف الأرض، ومثّل لهم صفتها التى فى نفسه، وهى أن تكون مدوّرة على شاكلة المدن الفارسية والآشورية القديمة، ووضع أول لبنة فيها بيده سنة ١٤٥ .

ويمكن إجمال وصفها فى أنه كان يستدير حولها خندق كبير وسوران شاهقان عريضا الجدران وراءهما سور داخلى مبالغة فى تحصينها. وفتح فى كل سور أربعة أبواب متساوية الأبعاد: باب الشام فى الشمال الغربى ويقابله باب البصرة فى الجنوب الشرقى على الصراة التى تأخذ من الفرات وتمضى حتى تتصل بدجلة، وباب خراسان فى الشمال الشرقى بحذاء دجلة ويقابله باب الكوفة فى الجنوب

النظم السياسية والإدارية:

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية إيذانا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية، فقد قامت فى المجال الفارسى وعاشت تتنفّس فيه. وقد بلغ الفرس قبل الفتوح الإسلامية مرتبة عالية فى تنظيم الحكم، حتى لنرى العرب بعد فتح ديارهم يسارعون إلى التأثر بهم فى هذا التنظيم، فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند، مقتديا فيه بصنيع الساسانيين، يقول ابن الطقطقى: «لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة، وهى خلافة عمر رضى الله عنه، رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئا يسمونه ديوانا جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شئ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل. فتنبّه عمر رضى الله عنه، وقال: صفه، فوصفه المرزبان. ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء (١)».

وكان هذا الديوان الأصل الذى تأسست عليه الأداة الحكومية للخلافة الإسلامية. وارتضى عمر لولاته فى الشرق أن يستعينوا فى جمع الخراج بنفس عمّال الفرس الذين كان يستعين بهم الساسانيون فى جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبراتهم التامة بكل الشئون المتصلة بهذا الجمع، وخاصة من حيث تقدير الخراج.

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها فى كل شئون الحكم، وكأنما أصبح الخليفة العباسى ملكا ساسانيّا، فهو يحكم حكما مطلقا وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساسانى، إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحماة له وحرّاسا. وكان العباسيون من بيت النبوة، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سندا لهم فيما يزعمون، وهو زعم باطل، لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده، ولم يرثها أبو بكر الصديق، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث، لما صح فى الحديث النبوى من قوله عليه السلام: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة».

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر فى خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد، ونعجب أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم دنيويين ظالمين ينصاعون انصياعا أعمى للعباسيين ويعدّونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية.

أحداث مختلفة:

لم تطل مدة أبى العباس السّفّاح إذ سرعان ما توفى سنة ١٣٦ وخلفه أبو جعفر المنصور، وهو يعدّ المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، فهو الذى أصّلها «وضبط المملكة ورتّب القواعد وأقام الناموس» ولم يكد يتسلم مقاليد الحكم حتى ثار عليه عمه عبد الله فى شمالىّ سوريا وكان يقود جيشا ضخما لحرب البيزنطيين،فوجه إليه المنصور أبا مسلم الخراسانى فى جيش جرار، فهزمه هزيمة منكرة فرّ على إثرها إلى البصرة عند أخيه سليمان بن على واليها، فأخذ يستعطف له هو وأخوه عيسى ابن على والى الأهواز المنصور حتى رضى أن يكتب له كتاب أمان، وتولى ابن المقفّع كتابته فشدد فيه العهد والميثاق على المنصور حتى أحفظه عليه. ومازال المنصور يمكر بعمه حتى وفد على بابه، فحبسه مدة إلى أن مات فى حبسه .

ولم يكن همّ المنصور بعد القضاء على ثورة عمه إلا أخذ أبى مسلم الخراسانى وكان قد عزم بعد هزيمته لعبد الله بن علىّ أن يعود إلى خراسان، وخشى المنصور أن تحدثه نفسه بخلعه حين يرجع إلى موطنه، إذ كان كل منهما يجد على صاحبه موجدة شديدة، فكتب إليه بالقدوم عليه، وخشى أبو مسلم مغبة قدومه، فكتب إليه بالطاعة وأنه متوجه إلى خراسان. وقلق المنصور، وكان مدبرا داهية، فكتب إليه يؤكد له حسن رأيه فيه ذاكرا خدماته لدولتهم، وأرسل له رسلا يزينون له المثول بين يديه، فما زالوا به حتى قدم عليه، وكان بالقرب من المدائن، فلما دخل إليه لقيه بالتوبيخ والتقريع، ولم يلبث أن قتله، وبادر إلى من كانوا معه من القواد فأعطاهم جوائز سنية وفرّق فى جنده أموالا كثيرة، فرضخوا للواقع ورضوا به وغضب أتباع أبى مسلم فى خراسان حين علموا بمصيره، ولم يلبث أن ظهر بينهم سنباذ، فقادهم معلنا أن أبا مسلم لم يمت وإنما اختفى وسيعود ليرفع الظلم وينشر العدل، وتابعه كثيرون مكونين فرقة المسلمية أو الخرّمية ، وقدم بهم إلى الرّى فغلب عليها، والتقى به المنصور بن جمهور

العجلى فى جيش كثيف، فقضى عليه وعلى ثورته ، ولكنه لم يقض على عقيدة فرقته، فقد أخذت تسرى فى نفوس كثير من الخراسانيين والايرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية.

العصر العباسي الثاني

استيلاء الترك على مقاليد الحكم:

مرّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف هيّأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريّة لإمام هاشمى يخلّص الموالى فرسا وغير فرس من حكم بنى أمية الجائر، محققا لهم المساواة المشروعة-بحكم الإسلام-بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرما.

وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيرين منهم يثورون عليهم منوال العصر، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوى سرّا كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فى حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهى فى الحكم والسلطان وتمادوا فى حكم استبدادى أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجّاب، أما الشعب فلم يزد فى رأيهم عن أن يكون أدوات مسخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة، على نحو ما صورنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول. وحقّا كانت أعلى المناصب وأكثرها فى أيدى الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بنى سهل. ونشب من جرّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب. فالعرب يريدون استرداد مجدهم فى العصر الأموى والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث فى الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقّا، مما أعدّ لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلّ عنه عنفا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعا. وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطرمة في شرقى الدولة، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى، وكان آخرها اندلاعا ثورة بابك الخرّمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عاما والتى كلفت الدولة كثيرا من الجيوش إلى أن سحقها المعتصم وقواده سحقا.

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفرس، فثوراتهم لا تنقطع، وأمانيهم فى إحياء مجدهم القومى لا تخمد، واستظهارهم للشعوبية والزندقة لا تهدأ فورته، وهداه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ضلال الرماح، مع حذقه بالرمى يمنة ويسرة ومقبلا ومدبرا، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفرغانة وأشروسنة إلى أن بلغت عدّته ثمانية عشر ألفا (١)، وكل يوم يزيد، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها. وكان جمهور هذا الرقيق بدوا جفاة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء، مما اضطر المعتصم أن يبنى لهم مدينة سامراء (٢) شمالى بغداد، وانتقل معهم إليها، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦ للهجرة.

وكان ذلك تحولا خطيرا فى تاريخ الدولة العباسية، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبثّوهما فى الحياة العربية، وأعدّوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن

الثقافات الأجنبية المختلفة، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية. أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة، إذ كانوا بدوا لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس، وقد صورهم الجاحظ تصويرا دقيقا فى رسالته التى تحدث فيها عن مناقبهم قائلا: «الترك أصحاب عمد (خيام) وسكان فياف وأرباب مواش، وهم أعراب العجم. . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرس ولا بنيان ولا شقّ أنهار ولا جباية غلاّت، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصّيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعانى والأسباب مسخّرة ومقصورة عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم، فلما كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة وأهل الصين فى الصناعات. . .وكآل ساسان فى الملك والرياسة».

ويبدو أن المتوكل تنبّه–منذ استيلائه على الحكم–إلى خطورة ازدياد النفوذ التركى، مما دفعه إلى التخلص سريعا من إيتاخ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبر أو البريد والحجابة والقيام على دار الخلافة، وكأنه نائب للخليفة. بل لكأنما أصبح الخليفة ولا سلطان له، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج، وما إن خرج من سامراء وأبعد فى الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابة وولاها وصيفا التركى (١). وهى سياسة سيتّبعها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض. وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيدا بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥. ولكن المتوكل لم يسدّد للترك ضربة قاضية، بل أخذ يراوغهم، مما جعله يضيف بغا الكبير إلى وصيف فى الحجابة. وتتوالى السنوات وهو ضيّق بقادة الترك ويفكر فى التخلص منهم جميعا ويهديه تفكيره فى سنة ٢٤٣ أن يترك سامرّاء ويتخذ دمشق حاضرة له، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشرورهم، ويشخص إليها فى ذى القعدة، ويبدو أن فكرته ذاعت فى الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويلة (٢):

أظنّ الشام تشمت بالعراق ...إذا عزم الإمام على انطلاق

فإن تدع العراق وساكنيها ...فقد تبلى المليحة بالطلاق

تدهور الخلافة:

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل فى السنوات الثمان التى تلته، ثم منذ عصر المقتدر، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولّونهم ويعزلونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم؟ وصوّر ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ – ٢٥٢ هـ)، فقال :

خليفة فى قفص ...بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له ...كما يقول الببّغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون بببّغاء فى قفص يردّد ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه، فالأمر كله لحاجبيه: وصيف وبغا، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذهنيهما خلعاه، وولّيا بعده المعتز بالله (٢٥٢ – ٢٥٥ هـ) ويروى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين؟ وكم يعيش؟ وكان

بالمجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره، فقالوا له: فكم تقول إنه يعيش؟ وكم يملك؟ فقال: طالما أراد الترك ذلك، فلم يبق فى المجلس أحد إلا غلبه الضحك . ولم يمكث المعتز فى دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه، وولوا بعده المهتدى (٢٥٥ – ٢٥٦ هـ) وكان حسن السيرة ورعا تقيّا اطرح الملاهى وحرّم الشراب والغناء، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه، وولوا المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ)، وكان منهمكا فى اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذى لقب بالموفق نهض بالأمر من دونه فثبّت الخلافة إلى أبعد حد، وأعاد إليها بحزمه وعزمه وجدّه هيبتها ومكانتها المهدرة، وقد ترك أخاه عاكفا على ملذاته، واحتمل أعباء الخلافة فى البطولة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقى، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصوّر ذلك بنفسه قائلا :

أليس من العجائب أنّ مثلى ...يرى ما قلّ ممتنعا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ...وما من ذاك شئ فى يديه

وتصادف أن توفى الموفق قبل المعتمد بقليل وكان وليّا للعهد، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلا مغوارا، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ – ٢٨٩)، فأكمل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة، فلم يرتفع للترك فى عهده صوت، وكان اسمه–كما مرّ بنا–أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله، وفيه يقول ابن تغرى بردى: «كان المعتضد شجاعا مهيبا أسمر نحيفا معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بنى العباس وشجعانهم، كان يتقدم إلى الأسد وحده»، ويقول: «هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده فى إدبار» (٢). وخلفه ابنه المكتفى (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولى عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيّا، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ)، وسنه ثلاث عشرة، فكأن كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوّضه فى لحظات، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء، وزادوا سمل الأعين.

ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الجباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة، فقد كانوا يدّعون عليه أن للسلطان عنده ودائع يجب أن يردها، وكانوا لا يزالون يتفنّنون فى تعذيبه:

حتى إذا ملّ الحياة وضجر ...وقال ليت المال جمعا فى سقر

أعطاهم ما طلبوا فأطلقا ...يستعمل المشى ويمشى العنقا

والعنق مشية سريعة، وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب، فهو يطير طيرانا. وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثا ضخما، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى، إذ يسجنونه، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى، وما يزالون يضربونه ويلكمونه ويصعفونه، يقول ابن المعتز:

وأسرفوا فى لكمه ودفعه ...وانطلقت أكفّهم فى صفعه

ولم يزل فى أضيق الحبوس ...حتى رمى إليهم بالكيس

وكأننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق. وما إن يجثم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فسادا لا حد له، وقد استوزر اثنى عشر وزيرا منهم من وزر له المرتين والثلاث، أولهم ابن الفرات، ويروى أنه حاسب كتّاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة

ألف دينار ، ولم يلبث المقتدر أن صادره فى سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير ، ومع الشك فى أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى فى سنة ٣١٢ وجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين ولا نصل إلى أواخر العصر، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم، فتصبح فارس والرّىّ وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه، وخراسان فى يد نصر بن أحمد السامانى، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم، وكرمان فى يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر فى أيدى بنى حمدان، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريدى، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر الجنّابى القرمطى، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيد، والمغرب وإفريقية فى يد القائم بأمر الله ابن المهدى الفاطمى المتلقب بأمير المؤمنين، والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر الأموى. ولم يبق فى يد الخليفة سوى بغداد، واستولى عليها منه– كما أسلفنا– البويهيون وخلعوه، وولّوا المطيع لله، وأصبحوا هم الذين يولّون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمى وأن يدعى له على المنابر، وخفّضت نفقاته، وقرّرت له نفقة طفيفة.

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة، وخاصة ثورتى الزنج والقرامطة، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقصى بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرما.

٤ – ثورة القرامطة

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن العلويين كانوا فرقا، وظلت هذه الفرق نشطة فى العصر العباسى الثانى، وأهمها فرقة الزيدية التى حملت السلاح دائما فى وجوه العباسيين، ثم فرقة الإمامية التى كانت تعيش على التقية وتعمل سرّا ضد العباسيين، وقد انقسمت مبكرة إلى اثنى عشرية آمنت بأن الإمامة توالت فى اثنى عشر إماما، آخرهم محمد المهدى المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة، وإلى إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان قد توفى قبل أبيه، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد، لأنها تنتقل حتما إلى الابن الأكبر، حتى لو مات فى عهد أبيه. وأخذت تتكوّن سريعا حول محمد الحركة الإسماعيلية، وكان الذى نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح، وهو فارسى كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان، وأخذ فى سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تقويض الدولة العباسية، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك. وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص، ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك فى كل ما يكسبون مقيما بينهم ضربا من الألفة. وبدأ بدعوته فى موطنه بالأهواز، ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقة الحسين الأهوازى، وأحسّ بمطاردة والى البصرة لهما، فهرب مع رفيقه إلى «سلمية» بقرب اللاذقية في الشام، ومن هناك أخذ يرسل دعاته إلى العراق، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثّا فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية. ودعا فى قوة إلى فكرة التأويل فى الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التى ترمز إليها من بعيد. وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة، سابعهم هو الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته ما قبله من الشرائع، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون.

وزعم أيضا أن أئمة الدعوة قسمان: أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرّون، وأئمة بجانبهم مستودعون وهم رءوس الدعاة المسمون بالحجج، وبذلك أصبح هو نفسه إماما مستودعا، وتبعه على ذلك أبناؤه، ومن هنا جاء الشك فى نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التى حكمت مصر نحو قرنين من الزمان، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون، وهى سبع مراتب، مرتبة للعامة، ومرتبة لمن فوقهم، ومرتبه لمن مرّ عليه عام، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام، ثم المرتبة السابعة، وجعلت المراتب فيما بعد تسعا.

حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاجّ يوم التّروية، وهم يهلّون ويلبّون، وقتل الحجاج قتلا ذريعا فى فجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف، طرح كثير منهم فى بئر زمزم، وعرّى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر، وظل هناك حتى ردّ إلى موضعه فى عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩. ونهب جميع التحف التى زيّن بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصّعوها به من الجواهر النفيسة، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يصرعون حوله فى المسجد الحرام، وهو ينشد مثل قوله:

أنا لله وبالله أنا ...يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ويقال إنه كان زنديقا لا يصلى ولا يصوم ولا يؤدى فرائض الإسلام، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدى بإفريقيا. ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦، خوفا من شره وشر أتباعه من القرامطة، غير أن شرّه لم ينحسر عن العراق، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩، وعاود الهجوم عليها فى سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة فى سنة ٣٣٠، ومات فى شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجدرى بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها، وبعد أن طال عذابه ورأى فى جسده العبر. وخلفه أخوه سعيد (٤) بن الحسن الجنّابىّ، وهو الذى رد الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة، وكان العراق قد دخل فى حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء، واضطروا بأخرة إلى الدخول فى طاعة الخلافة العباسية ونبذ عقيدتهم القرمطية.

الحياة الاجتماعية

١ - الحضارة والثراء والترف

لما فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ورثوا ما فى الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما فى الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية، وأخذوا يكوّنون من ذلك ومن تراثهم العربى الخالص حضارتهم الإسلامية، وكان طبيعيّا أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وغلبت على ما كان به من عناصر كلدانية وآرامية، وهى تبدو واضحة فى بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة على شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة.

وقد كشفت حفائر سامرّاء عن طريق بناء الدور والقصور لا فيها فحسب، بل أيضا فى بغداد، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف (١) يفضى إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو

الإيوان، وتتناثر فى الدهليز والفناء غرف متجاورات للسكنى والمرافق المنزلية، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة. وبجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغرى ثانوية تعلوها بعض القباب، وأكبرها جميعا قبة الإيوان. وفى الدار حمامات ومجار تحت الأرض وسراديب معدة للسكى، وتكثر الأساطين فى الأفنية، وتكثر الشرفات وتلحق بها بعض البساتين وبعض النافورات والبرك. وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملوّن، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار، وقد يذهّب السقف والأبواب والحيطان وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية والطنانس ومناضد الآبنوس والتحف الثمينة وتماثيل العقيان والجامات المذهبة والأوانى المرصعة بالجواهر.

ولا ريب فى أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسى ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين، وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعا بأسباب النعيم، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق. ومردّ ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد، وطبقات قتّر عليها فى الرزق، فهى تشقى إلى غير حد، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم.

وكانت خزائن الدولة هى المعين الغدق الذى هيأ لكل هذا الترف، فقد كانت تحمل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض، حتى قالوا إن المنصور خلّف حين توفى أربعة عشر مليونا من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم وإن دخل بيت المال سنويّا لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليونا من الدنانير وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تصبّ فى حجور الخلفاء ومن يحف بهم من بيتهم ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين ونسوق من ذلك أطرافا تصور ما آل إليه ذلك من شيوع الإقطاع والثراء العريض فى الطبقة الحاكمة وحواشيها ومن يلوذون بها، فقد روى عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم فى كل عام.

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين، ورسم المهدى لمروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على مدحته ذائع مشهور، وكان يصنع الصنيع نفسه مع المغنين حين يطرب لبعض أصواتهم، وتجاوز رسمه لمروان ابنه الهادى فأعطاه يوما على مدحته فيه مائة وثلاثين ألف درهم ، وأطربه مغن فأهداه سبعمائة ألف دينار. وكان الرشيد بحرا فياضا ما بنى ينهلّ على العلماء والفقهاء من أمثال قاضيه أبى يوسف والأصمعى والكسائى، والأطباء من مثل جبرائيل بن بختيشوع، ويقال إنه صار إليه فى عهده ما يزيد على أربعة ملايين من الدراهم ، وكان يجزل للشعراء والمغنين من نواله، ويكفى أن نعرف أنه وصل سلما الخاسر وحده لمدائحه فيه بعشرين ألف دينار .

١ – طبقات المجتمع

كان يتوزّع مجتمع العصر العباسى الثانى ثلاث طبقات أساسية: طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليسار،

وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين، ثم طبقة دنيا تشتمل على العلمة من الزّراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق، ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الذمة.

وكانت الطبقة الأولى تغرق فى النعيم، يتقدمها الخلفاء وكانت تجبى إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبى من المكوس على الواردات والصادرات، وعادة كان الوالى يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبيمارستانات ومن بها من الجند والموظفين.

وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليونا من الدراهم، وبلغ دخل جزء منه فى عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفا من الدنانير. وتدهور الدخل فى عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليونا وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار، ويورد الصابى مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهده فى سنة ٣٠٦، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليونا وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفا وثمانمائة وأربعين دينارا وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تنفق سنويّا، وقلما كان يتبقى منها شئ ويقال إنه لما ولى المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ) ادّخر من كل سنة من سى خلافته مليون دينار، بلغ ما ادخره تسعة ملايين ، وخلفه ابنه المكتفى (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ)، فبلغ بالمدّخر أربعة عشر مليونا. وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب، بل أتلف كل المدّخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنويّا ومما كانت تغلّه الضياع السلطانية الواسعة، حتى قالوا إنه بدّد–كما مرّ بنا فى الفصل الماضى–ثمانين مليونا من الدنانير.

ويورد الصابى فى كتابيه: الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتا بما كان ينفق على حواشى الخليفة وداره فى عصر المعتضد والمقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ)، وهى تصور عظم هذه النفقات. فقد كان ينفق على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهريّا وكان ينفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهريّا، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفا، غير ما ينفق على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار، وغير ما ينفق على المماليك والحرس وكانوا يعدّون بالآلاف، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القرّاء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمصحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاّحين فى السفن وأصحاب المشاغل والأطباء، ويقول الصابى إن نفقة ذلك كله وما يجرى مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنويّا. ويقال إنه كان فى الدار لأيام المكتفى عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة، أما فى أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم تسعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وألوف من الغلمان الحجرية (المقيمين فى الحجر)، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس، وكان عدد الفراشين ثمانمائة. ويروى المؤرخون أن الراضى (٣٢٢ – ٣٢٩ هـ)، عمل على القصد الشديد فى نفقات دار الخلافة، حتى بلغت مع شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار يوميّا.

وقد بدأ العصر بالمتوكل، ويقال إن النفقات لم تبلغ فى عصر من عصور الخلفاء ما بلغته فى عصره، وخاصة فى بناء القصور، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيرى، وكان يجعل فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام، وكان فى الراق مجلس الخليفة، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يحتاج إليه من الشراب. وكان كلما بنى قصرا أتبعه بآخر، حتى بلغت قصوره نحو العشرين، وهى: بركوار (دار الهناءة) والشاه والعروس والبركة والجوسق والمختار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشبداز والقصور والجامع

والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو واللؤلؤة، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليونا من الدراهم. وكان البرج من أجملها زينة إذ جعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة، وبركة جعل فرشها ظاهرا وباطنا صفائح الفضة، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرّد وتصفر مكللة بالجوهر، وسميت طوبى (من أشجار الجنة). واتّخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالا سبعين عظيمين ودرج عليه صور السباع والنسور. وألبست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليونا وسبعمائة ألف دينار

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفّف عن النصارى حتى لنجده هو نفسه يجعل النفقة فى سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دليل بن يعقوب النصرانى كاتب بغا (٢). وكثر أهل الذمة بعده فى الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة فى سنة ٢٧٢ للهجرة تثور عليهم (٣).

ويعظم أمر أهل الذمة فى أواخر القرن الثالث، إذ يكثر استخدامهم فى الكتابة وفى امور المسلمين فيأمر المقتدر لسنة ٢٩٦ بألا يستخدم أحد منهم إلا فى الطب والجهبذة وأن يطالبوا بلبس العسلى وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم (٤)، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يوميّا إلى طعام مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعا (٥).

وواضح من هذا كله ما يدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التى كانت تصدر أحيانا بالتشديد عليهم لم تكن تنفّذ، وأنهم كانوا يعملون فى مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج. وكان كثير منهم –وخاصة من النصارى– يعيشون فى نعيم غدق لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة.

الحضارة والترف والملاهى:

رأينا تفنّن الخلفاء والوزراء فى بناء القصور، حتى ليشبه بعضها مدنا صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات، مع التأنق فى أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر.

وقد افتتح العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التى كلفت الدولة ملايين الدنانير، ويكفى لتصور ما كان فى عصره من بذخ وترف شديد أن نروى ما قصّه الرواة عن حفله الذى أقامه بمناسبة إعذار (ختان) ابنه المعتز، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس فى خزائن الفرش بساطا لإيوان قصر البركوار الذى أقام فيه الإعذار، وأن يكون فى طوله وعرضه، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين، ووجد طلبته: بساطا مذهبا مبطنا، يقال إن التجار قوّموه بعشرة آلاف دينار.

وبسط فى الإيوان ووضع للمتوكل فى صدره سرير، مدّ بين يديه أربعة آلاف مرفع (كرسى) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والندّ والكافور. ومدّت الموائد وتغدّى المتوكل والناس. وجلس على السرير، وأحضر الأمراء والقواد والندماء فأجلسوا على مراتبهم، وجئ بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين، صبّت فيها حتى ارتفعت. ووزّع الغلمان الشراب، ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملت يداه من ذلك المال.

وكان الناس يجمعونه فى أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم. وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدراهم حتى يعود كما كان.

كانت العامة تجد تسليتها المحبّبة عند قصّاص كانوا منتشرين فى طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لنرى المعتمد يأمر فى سنة ٢٧٩ بالنداء فى بغداد ألا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاصّ ولا صاحب نجوم ولا زاجر (٣). وكان اللعب بخيال الظل معروفا حينئذ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك (٤). وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفننون فى طرق الهزل، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازلين ببغداد من الأعراب والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعا، وقد بحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير (٥). ومن أشهر هؤلاء الحكّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلى، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخبارا ونوادر ومضاحك، وكان فى نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك، وكان لا يدع حكايته لأعرابى أو مكى أو نجدى أو تركى أو نبطى أو زنجى أو سندى إلا حكاها، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى، وسمع به المعتضد فأحضره، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه .

الرقيق والجوارى والغناء:

كثر الرقيق فى العصر العباسى كثرة مفرطة بسبب كثرة من كانوا يؤسرون فى الحروب وبسبب انتشار تجارته ومعروف أن الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب، غير أن تجارة الرقيق كانت منتشرة فى إيران وخراسان وما وراءهما وفى الدولة البيزنطية، وعظمت هذه التجارة فى الإسلام على مر السنين، حتى كان فى بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق (٢)، وكان يقوم عليه موظف يسمّى قيّم الرقيق.

وكان الرقيق حينئذ يجلب من بلاد الزّنج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبى أوربا وكان الزنوج يعملون فى فلاحة الأرض غالبا، أما غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة فى المنازل والقصور. وقد دعا الإسلام دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق فكان كثير منهم يحرّرون، وقد يصل بعضهم إلى أرفع المناصب فى الدولة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه ثم وزيره. وكان الرشيد يستكثر منهم حتى قال إنه سار يوما وبين يديه أربعمائة منهم ، ومعروف شغف المعتصم بالرقيق التركى، وما زال يشتريهم من أيدى مواليهم ومن النخاسين حتى اجتمعوا له بالآلاف وحتى اضطرّ أن يبنى لهم-كما أسلفنا-مسرّ من رأى كى يجنّب العامة شرهم وأذاهم.

وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر عددا من رقيق الرجال فقد ذخرت بهن الدور والقصور، إذ أحلّ الإسلام للشخص أن يتملك من الإماء والحوارى ما شاء، وبينما قيّد حريته إزاء الحرائر فحرّم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حريته إزاء الجوارى فلم يقيّده بعدد منهن، وإن كان قد حرم عليه بيع من يستولدها وردّ إليها حريتها بعد وفاته وجعل أولاده منها أحرارا منذ ولادتهم. وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر، لأنهن كن من أجناس مختلفة، فمنهن السنديات والفارسيات والحبشيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات، وأيضا ربما كان للحجاب دخل فى ذلك، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر، أما الجوارى فكن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم، وصوّر ذلك الجاحظ فقال: «قال بعض من احتجّ

للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمّل كل شئ منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة، والحرّة إنما يستشار فى جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلا ولا كثيرا، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك. وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكأن عقها إبريق فضة وكأن ساقها جمّارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المدارى وما أشبه ذلك، وهناك أسباب أخربها يكون الحب والبغض» (٢).

وكانت هؤلاء الجوارى والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثّرن آثارا واسعة فى أبنائهن ومحيطهن، وهى آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملا بعيد الغور، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن، فالمنصور أمه حبشية والهادى والرشيد أمهما الخيزران رومية والمأمون أمه مراجل فارسية وكذلك أم المعتصم ماردة. وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس. وقد أخذ هؤلاء الجوارى يكثرن فى القصر منذ المهدى وكان بينهن من يعلقن الصّلبان ويقال إنه اشترى جاريته مكنونة بمائة ألف درهم. وقد استكثر الرشيد وزوجه زبيدة من الجوارى والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفى جارية فى أحسن زى من الثياب والجوهر ، وكانت سحر وضياء وخنث من بينهن يشغفن قلبه، وفيهن يقول، وقيل: بل نظم ذلك العباس بن الأحنف على لسانه:

ملك الثلاث الآنسات عنانى ...وحللن من قلبى بكل مكان

مالى تطاوعنى البريّة كلّها ...وأطيعهنّ وهنّ فى عصيانى

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ...–وبه عززن–أعزّ من سلطانى

العصر الاول:

الشعوبية والزندقة:

نادى الإسلام فى قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب، حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية، فلا عدنانى ولا قحطانى ولا عربى ولا أعجمى، إنما هى أمة واحدة يتساوى أفرادها فى جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح، يقول جلّ شأنه: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ويقول الرسول ﷺ فى خطبة حجة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» .

وهذا بلا ريب مثل أعلى أراده الإسلام لأمته، غير أنا لا نصل إلى عصر على بن أبى طالب وما نشب لعهده من حرب صفّين حتى نرى العصبيات القبلية تعود جذعة بين القبائل، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة، بل لقد اضطرمت اضطراما لم تهدأ ثائرته طوال عصر بنى أمية. وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادّة الدين فى معاملة الموالى، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب فى الحقوق، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة، فلم يؤت عمله فى هذا الجانب أى ثمرة.

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالى سببا فى اضطغانهم على العرب، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية، فشاركوا الخوارج والشيعة فى الثورة عليها، يأخذ فريق منهم يمثلهم إسماعيل (٣) بن يسار النسائى يفاخر العرب بحضارة أمته الفارسية وملوكها الساسانيين الذين غلبوا على الأرض. وعظم حقد الموالى على الدولة، وملأت الحفيظة

والموجدة صدورهم، والتفّت منهم جماعات كثيرة حول أبى مسلم داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا فى جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا فى أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا، بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة، وخاصة حين استولى على أزمّة الحكم البرامكة فى عهد الرشيد وبنو سهل فى عهد المأمون.

وكان هذا التحول الخطير فى مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة فى المجتمع العباسى الجديد سببا فى بروز نزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب–وفى مقدمتها الشعب الفارسى– للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة.

وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الإسلام فلا عربى يفضل أعجميّا ولا أعجمى يفضل عربيّا، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة فى نفسها تعلى من شأن صاحبها، فالناس جميعا سواء وقد خلقوا من تراب ويعودون إلى التراب.

وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والنزول بهم دونها مرتبة أو مراتب، وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين، إذ قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقّصوا قدرهم وصغّروا شأنهم، وكانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوّضوا دولهم وهى مشاعر ما زالت تحتدم فى نفوس الفرس حتى أحيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة. وأشد من كل هؤلاء عنفا وغيظا من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة، وفيهم يقول الجاحظ: «إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدّى إلى الضلال، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك

وأهم شاعر فى العصر أوقد نيران هذه الخصومة وظل يمدها بحطب جزل من أشعاره بشار بن برد وكان فى عصر بنى أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس، حتى إذا حدث الانقلاب العباسى انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسبا ولاءه إلى الله ذى الجلال، يقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم ...مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

وقد مضى يشنّ حربا عنيفة على العرب، وكان أبوه طيّانا يضرب اللّبن، فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلا– كما يقول الجاحظ–بذلك فى باب فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه. ولم يكتف بهذا النسب الذى ادعاه فقد مضى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الرّوم على نحو ما نجد فى قصيدته :

هل من رسول مخبر ...عنى جميع العرب

وهى تصور ضراوة حقده العنيف على العرب، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم. وفى الحق أن شعوبيته كانت صارخة، إذ كان زنديقا وعدوّا للعرب ودينهم الحنيف عداوة ترسب فى ضميره وفؤاده.

وممن يسلكون فى شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريمى، ولم يكن جادّا فى تعصبه على العرب وخصومتهم، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب، ولذلك ينبغى أن ينحّى عن جماعة الشعوبيين، وأدخل منه

فيهم أبو نواس وشعوبيته إنما ترجع إلى شغفه بالخمر وعكوفه على المجون وإعجابه بالحضارات الأجنبية، فهى شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات، وكان يبتغيها ما وجد إليها سبيلا، ويجعلها غاية الغايات من حياته، وقد مضى يصور ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدّية الخشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة بالخمر والغلو فى الشراب والإغراق فى اللذات، وله فى ذلك أشعار كثيرة. وكانت تسقط أسراب من هذه النزعة إلى شعراء النبط والهند، من مثل قول أبى الأصلع الهندى يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند :

لقد يعذلنى صحبى ...وما ذلك بالأمثل
وفى مدحتى الهند ...وسهم الهند فى المقتل
وفيه السّاج والعاج ...وفيه الفيل والدّغفل

المصادر والمراجع :

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .

- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .